الدولة بين الهيبة والمواطنة

"قواعد وضوابط"

عبد القادر سليماني

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد :

لا شك أن هيبة الدولة أمر مهم بالفعل، فالدولة الفاقدة للهيبة فاقدة لركن أساسي من أركان سلطتها وقدرتها على الحكم .

- فما هو مفهوم هيبة الدولة في بعده الوطني ؟
- تحديد علاقة هيبة الدولة بالمواطنة.

- أسباب تدهور روح المواطنة، وانعكاسها على هيبة الدولة؟

- كيف يمكن استعادتها ؟

1-مفهوم الدولة.

الدولة هي مجموعة من البشر، يرتبطون فيما بينهم بروابط معينة، ويقيمون على إقليم معين، ويخضعون لسلطة معينة.

وقد طرأ تغير كبير على مفهوم الدولة ومهامها عبر الزمن، نتيجة تعدد التوجهات السياسية، والتحولات الاجتماعية الكبيرة، وتطور مستوى الوعي الانساني، فأصبحت الدولة ضرورة وحاجة، وشخصية حقوقية ومعنوية، تعرف بحقوق مواطنيها، وتعبر عن المراحل التاريخية والحضارية لمجتمعاتها.

فقد عرّفها" دوركيم": بأنها النظام المسؤول أساساً عن حماية الحقوق الفردية، ويمتد نطاقها ليشمل الحقوق الشخصية والأخلاقية، وتقسيم العمل.

ويعتقد "جان جاك روسو" أن الجماعة العامة لا تقوم إلا على أساس اتفاق الأفراد فيما ينهم، ورغبتهم في العيش معا؛ وعلى ذلك فلا يمكن تصور وجود مجتمع منظم إلا على أساس إرادة أفراد واتفاقهم على الإجتماع معا، ويكون العقد الذي يتم باتفاق إرادة الأفراد على العيش معا هو أساس وجود الدولة .[1]

وجلّ هذه التعاريف تصبّ في بمعنى واحد، هو أن **الدولة** هي الشخصية المعنوية التي تفرض سيادتها على الأرض، وتشرف على استغلال وتوزيع

---

[1] - في نظرية الدولة والنظم السياسية، د/محمد نصر مهنا، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999، ص: 40، وأنظر د/عبد الغفار رشاد ، قضايا نظرية في السياسة المقارنة ، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، 1993، ص: 138.

الموارد بشكل عادل ومنصف، وتنبثق عنها كافة السلطات التي تدير شؤون مؤسساتها المختلفة، التي تشمل كافة المجالات الحيوية، منها السياسية، والعسكرية، والقضائية، والإدارية، والاقتصادية، وغيرها؛ وتعتبر الحامية والضامنة لحقوق الأفراد والجماعات دون استثناء، مقابل أداء واجبهم في الطاعة والخضوع.

وبمعنى آخر، هي تجمع بشري يقيم على وجه الدوام، بنية الاستقرار فوق إقليم معين، وتقوم بينهم سلطة سياسية تتولى تنظيم العلاقات داخل هذا المجتمع، كما تتولى تمثيله في المجتمعات الدولية.[1]

2-مفهوم هيبة الدولة .

ينطوي مفهوم **هيبة الدولة** على عنصرين:

أولهما: الرهبة والخشية، أي ما تبثه الدولة في نفوس الناس من شعور بالوجل والتهيب يمنعهم من تحديها أو انتهاك نظامها، وهو ما يثّبته اقتناعهم بأنهم إن فعلوا سيلقون عقابا رادعا.

والعنصر الثاني: هو **الاحترام**، أي الشعور بالتقدير لأفعال الدولة، وهو شعور ينبعث من إلتزام هذه الأفعال بقيم وقواعد مطردة، ومن خدمة هدف عام يتعدى مصالح القائمين عليها.

---

[1] - مبادئ العلوم السياسية، د/إسماعيل صيري مقلد، جامعة أسيوط، 1977، وأنظر د/عبد الحميد متولي، القانون الدستوري والأنظمة السياسية، القاهرة، دار النهظة المصرية،1993، ص:38، ود/عاطف أحمد فؤاد، علم الإجتماع السياسي ، الأسكندرية، دار المعرفة الحامعية، 1995، ص:19.

فالاحترام مرتبط بالقانون، والعقاب ذاته حين يكون منضبطا بالقانون، وساريا على جميع الحالات المشابهة، يبعث الاحترام في النفس.

وعمليا إن **هيبة الدولة** هي ممارسة سياسية، تتحقق من خلال بنية حكومية قوية ذات مصداقية سياسية، وميدانية في جميع المجالات الحيوية للمجتمع .

وعليه فإن **هيبة الدولة** تتجسّد عبر حكومة لا تقوم على المحسوبيات والترضيات، ولا تجمد خططها ومشاريعها التنموية لارضاء هذا الطرف أو ذاك، فهي حكومة قريبة من نبض المواطن، وتضع مصالحه فى قمة سلم أولوياتها.

فحكومة ردود الأفعال، والحكومة الخاضعة لاملاءات الصوت العالي، والبعيدة عن نبض الشارع، والعاجزة عن تطبيق القانون، والحكومة التي لا تجيد التعامل مع البرلمان وفق القنوات الدستورية، لا يمكن أن تكون قوية، ولا يمكن أن تساعد في بناء الدولة، لذلك فإن الحكومة الضعيفة هي من تضيّع هيبة الدولة، في نظر المواطن.[1]

3- المواطنة وعلاقتها بهيبة الدولة.

المواطن هو الإنسان الذي يستقر بشكل ثابت بداخل الدولة أو يحمل جنسيتها، ويكون مشاركاً في الحكم، ويخضع للقوانين الصادرة عنها، فهو يتمتع بشكل متساوي مع بقية المواطنين في مجموعة من الحقوق، ويلتزم بأداء مجموعة من الواجبات اتجاه الدولة.

إن **هوية المواطن** أداة التعريف بشخصيته المعنوية على مستوى الوطن، لكن هذه الأداة ليست كافية لتأكيد ذاته خارج حدود الوطن، فالشخصية المعنوية

---

[1]- المواطنية في التاريخ العربي الإسلامي، د/ هيثم مناع، ص: 5.

ينقصها التعريف الحقوقي لتصبح شخصيته معنوية وحقوقية من خلال إضفاء صفة انتماءه للأرض–الوطن- الذي تمثله الدولة. [1]

إذاً **الدولة هي المرجعية القانونية للمواطن**، وبدونها يبقى الفرد مجهولاً، ولا يمكن قبوله أو التعامل معه، فالانتماء إلى الدولة-الوطن-، هو تأكيد وتعريف للذات على المستوى الاجتماعي والقانوني .

فكلما كانت الدولة قوية ومكتسبة للشرعية الوطنية والدولية، كلما اكتسبت شخصية مواطنيها الاحترام والاعتراف على الصعيد الدولي، تبعاً لتأثيرها وحضورها العالمي.

وبخلافه، فإن الدولة الضعيفة والفاقدة للشرعية الوطنية والدولية، يصبح مواطنوها عرضة للانتهاك والتشكيك في الدول الأخرى. [2]

تعزيز هيبة الدولة :

إن **تعزيز هيبة الدولة** منوط بالتزام المواطن بحقوقه وواجباته اتجاهها، فكلما زاد وعيه بحقوقه زادت مطالبته ونضاله لانتزاعها، مما يدفعه لإنجاز واجباته تجاه الدولة، فيتعزز مكانة وحضور الدولة في المجتمع باعتبارها ضامنة لحقوق المواطن، وتسعى لحمايته، وتمنحه الشرعية على الصعيد الوطني والدولي.

---

[1] - ما هي المواطنة، نبيل الصالح، ص:12.

[2] - المواطنية في التاريخ العربي الإسلامي، د/ هيثم مناع، ص: 5، والشرعة الدولية لحقوق الانسان، الاعلان العالمي لحقوق الانسان، جمعية القانون، ص:10 .

إن **وجود سلطة مستبدة**، تعتمد آليات ومؤسسات الدولة في اضطهاد المواطنين، ينسف مفهوم **هيبة** الدولة ذاتها، كونها أخلت بشرط التعاقد بينها وبين المجتمع، وبالتالي يفقد مبدأ الحقوق والواجبات دلالته الشرعية والقانونية عند المواطن.

ويعد النضال ضد سلطة الاستبداد لاسترداد الحقوق هو بمثابة الانتصار لمفهوم الدولة المُغيَّب، فالدولة هي سلطة المواطن، في حين أن سلطة النظام السياسي الذي تقوده نخبة سياسية من المفترض أن تبدي خضوعها لمبادئ الدولة لتكتسب شرعيتها، وإلا فإنها فاقدة للشرعية.

وهنا يجب **التمييز بين الدولة**، كمؤسسات وموارد يتوجب إبداء الحرص وحمايتها من العابثين، وبين **السلطة المستبدة** التي توظف أدوات القمع والعنف ضد المواطن، وتتخلّى عن مهامها الأساسية، باعتبارها أجهزة ضبط وتحكم في المجتمع لصالح المواطن وفق القوانين والأحكام التشريعية .

فعلى المواطن عدم التخلي عن واجباته في الحفاظ على مؤسسات الدولة، وتعزيز وجودها، وفي نفس الوقت العمل على التصدي، بالطرق السلمية والمشروعة، للسلطة المستبدة التي تخلت عن مهامها، لاستعادة مكانة الدولة التي تعتبر الجهة الوحيدة المعبرة عن شخصية المواطن والضامنة لحقوقه.

إن تدني مستوى الوعي بالمفاهيم السياسية أدى في كثير من الأحيان إلى الخلط بين مفهوم الدولة ومفهوم السلطة، وعدم التمييز بينهما، فتشوه مبدأ النضال والمقاومة ضد السلطة، وأصبح التخريب وإلحاق الضرر بمؤسسات

الدولة، وإضعاف مقوماتها تعبيراً عن النضال المزيف الساعي إلى السلطة لا غير.[1]

5-كيف يمكن استعادة هيبة الدولة ؟

أولا: بتنمية روح المواطنة:

إن المواطنة لا تعني بالضرورة حقيقة الانتماء إلى وطن ما، كما أنها لا تعني حب الانتماء إلى وطن ما فحسب، ولكنها أبعد عمقاً من ذلك؛ فهي، تعني قيام علاقة بين كل فرد من أفراد المجتمع وبين الوطن الذي يعيش فيه.

هذه العلاقة تكون ركيزتها تمتع هذا الفرد بحقوق معينة يكفلها له الوطن، وقيامه في ذات الوقت بواجبات معينة لخدمة هذا الوطن.[2]

ومن الثابت لدى المهتمين أن هذه العلاقة قابلة للتنمية، حيث أن هناك العديد من العوامل التي قد تؤدي إلى **تنمية روح المواطنة** لدى الأفراد، وسأجمل بعض هذه العوامل على النحو التالي:

الأول: احترام مؤسسات الدولة، ومنها على سبيل المثال الجيش والشرطة والنظام القضائي، فاحترام هذه المؤسسات، واحترام دورها المنوط بها، والتعاون معها في أداء واجبها، يعني احترام الوطن ككل.

---

[1] - حقوق الإنسان والسياسة الدولية، د/دافيد ب.فورسايت، ترجمة محمد مصطفى غنيم، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة؛ والمواطنة والديمقراطية في الوطن العربي، د/علي الكواري، ص: 118، مجلة المستقبل العربي،والسياسة نظريات ومفاهيم، د/محمد الدجاني، د. منذر الدجاني، ص:195.

[2] - المواطنة والديمقراطية في الوطن العربي، د/علي الكواري، ص: 117 .

الثاني: تساوي جميع المواطنين أمام القانون، وهذا من شأنه يعمق الشعور بالوطنية، ففي الإسلام أساس التمايز بين المواطنين هو تقوى الله عز وجلّ ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، الحجرات-13، والتقوى وبلا شك تشمل الحفاظ على الوطن، ومن هنا لم يعد في الإسلام دور للعرقيات أو الطبقات الاقتصادية كمحددات لمكانة الأفراد، فبلال الحبشي أفضل من أبي جهل.

الثالث: الانخراط في العمل الاجتماعي والتطوعي، حيث إن مثل هذه الأعمال التي يقوم بها الشخص دون مقابل مادي، تنمي روح الجماعة، وبالتالي روح المواطنة.

الرابع: الاعتزاز بالهوية الوطنية، ومن مظاهر ذلك الفرحة باليوم الوطني وتهنئة المواطنين به، وهذا لا يتعارض مع كون الإنسان ينتمي إلى دين عالمي كالإسلام، والنبي صلى الله عليه وسلم عندما خرج من مكة نظر إليها، وقال:" إني لأعلم أنك خير أرض الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"[1]، فالهوية الإسلامية - كون الإسلام خاتم الأديان - تجاوزت حدود الزمان والمكان، فنحن نعتبر أنفسنا إخوة للمسلمين الذين عاشوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإخوة لمن سيأتون من المسلمين إلى يوم القيامة، وهذا فيه معنى تجاوز الزمان، كما أننا نعتبر أنفسنا إخوة للمسلمين في أي بقعة جغرافية في العالم، وهذا فيه معنى تجاوز حدود المكان، أما المواطنة فهي الانتماء إلى وطن في زمان معين ومكان معين.

---

[1] - أخبار مكة،محمد بن إسحاق، تحقيق د/عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ط2،1414، 290/2.

الخامس: نشر ثقافة المواطنة بين جميع أفراد الشعب على اختلاف فئاتهم العمرية ومستوياتهم الثقافية، فإذا علمنا بأن المواطنة عملية تراكمية تبدأ من سن الثالثة أو الرابعة، علمنا بأن الأسرة يقع عليها أول الواجبات لتنمية مثل هذا الشعور، فعن طريق حث الأطفال على الحفاظ على الممتلكات العامة والابتعاد عن ثقافة " هذا مال البايلك" التي نسمعها من بعض الآباء عندما يعبث أبناؤهم بالممتلكات العامة، نستطيع أن نضع أول لبنة في مشروع مواطن صالح.[1]

ثانيا: تحقيق التزامات مؤسسات الدولة، بما يعود على المواطن بالخير في جميع مجالات حياته.

وخلاصة القول: فإن **هيبة الدولة**، يكمن احترامها، وتعلو مكانتها في مصداقية وقوة تنفيذ القرارات، في إطار الدستور والقوانين التي وضعت لتنظيم أعمال الدولة عبر مؤسساتها الحكومية، لتسيير وتسهيل حياة المجتمع الوطني بشكل سليم ومنظم وعادل، ممّا يعزّز مكانتها لدى المواطن، ويبعث من خلالها ترقية روح المواطنة وثقافتها في خدمة البلاد والعباد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

[1] - ما هي المواطنة، نبيل الصالح، ص:17، في التربية والسياسة، ناصيف نصار، ص:15، المواطنه في التاريخ العربي والإسلامي، د. هيثم مناع، ص: 6.